أثر الاغتيالات السياسية علي السياسة الداخلية والخارجية في الدولة الخوارزمية (*)

الباحث/ حاتم السيد مصطفي
ماجستير آداب – قسم التاريخ الإسلامي

المقدمة:

لا شك أن جريمة الاغتيال تعد من أخطر وأصعب الجرائم التى ظهرت فى الجنس البشري، ولا تعود خطورتها لما لها من آثار سلبية على شخص المقتول؛ أو أسرته فحسب، بل لما يعود على المجتمع ككل، ولما يترتب عليها من آثار خطيرة مدمرة للمجتمعات الإنسانية بصفة عامة، وكان لانتشار ظاهرة الاغتيالات فى الدولة الخوارزمية آثاره المختلفة فى شتى المجالات، سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، وظلت هذه الآثار تنخر فى جسد الدولة تدريجيا حتى أودت بحياتها عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣٩م على يد المغول، وظلت هذه الدولة عاجزة أمام هجمات الأعداء التى لم تنقطع وكانت تستولي على مواردها وخيراتها وموروثها الثقافي والحضاري. وكان من أخطر الآثار التى تركتها الاغتيالات الآثار السياسية سواء علي الصعيد الداخلي أو الخارجي، بداية من ضعف السلطة وتفتيت القوى ونهاية بزوال الدولة، بل وزوال الخلافة الإسلامية ككل. وتمثلت هذه الآثار فى الآتي:

١- زوال الدول:

كانت الاغتيالات السياسية من أكبر الأسباب التى أدت إلى زوال معظم الدول المستقلة في المشرق خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخ الإسلام ومن هذه الدول:

(*) مجلة المؤرخ المصرى، عدد يناير ٢٠١٩، الجزء الثانى، العدد ٥٤.

- **الدولة السلجوقية : (٤٣١ هـ/٥٩٠م).**

من المعروف أن العلاقات بين الدولتين مرت بمرحلتين متباينتين،: الأولى مرحلة الوفاق والتبعية وانتهت بثورة أتسز على السلطان سنجر السلجوقي عام٥٢٩هـ/١١٣٤م،: والثانية وهى مرحلة الحرب والصراع[١]، وكان من أكبر عوامل زيادة هذا الصراع هو سلسلة الاغتيالات التى شهدتها العلاقات بين الطرفين، بداية من اغتيال ابن أتسز على يد السلطان سنجر، مما جعل الأخير يقسم أن يثأر لمقتل ابنه، فخرج أتسز إلى مدينة مرو وقام بسلسلة من الاغتيالات العامة للشعب والعلماء، بل إنه قام بمحاولة فاشلة لاغتيال السلطان سنجر على أيدى اثنين من فدائية الإسماعيلية، وانتهى الصراع بين سنجر وأتسز باعتراف سنجر بأتسز سلطانًا مستقلا على البلاد التى تحت يديه، وكان من آثار هذا الصراع الطويل المرير أن وقع سنجر فى أسر الخطا، بعد أن تحالف أتسز معهم مما أضعف من موقف سنجر، بل وأضعف من صحته الشخصية، فلم يلبث كثيرا من الوقت بعد أن خرج من الأسر حتى مات عام٥٥١هـ/١١٥٦م [٢].

لم تتحسن علاقات خلفاء أتسز وسنجر بل كانت أسوأ حالا، فعندما تولي آيل أرسلان بن أتسز الحكم بعد أبيه كانت أملاك السلاجقة قد انقسمت إلي قسمين بين سلاجقة العراق وسلاجقة خراسان، وساءت علاقات آيل أرسلان مع كل منهما، ودخل فى صراع معهما، وحدث بينهما مجموعة كبيرة من الاغتيالات أسفرت عن ضعف شديد فى جانب السلاجقة أدى إلى انهيار دولتهم، فبمجرد اغتيال المؤيد "آي إبه" وابنه "سنجر شاه" على يد خوارزم شاه آيل أرسلان انتهت دولة سلاجقة خراسان [٣].

كما قام الخوارزميون بعدة اغتيالات متواصلة لسلاطين سلاجقة العراق، متمثلة فى اغتيال ملكشاه وسليمان شاه [٤]، وبذلك اعتقد خوارزم شاه آيل أرسلان أن الفرصة مواتية له لضم بلاد العراق العجمي وأن الطريق أصبح مفتوحا أمامه للسيطرة على كل ممتلكات سلاجقة العراق [٥]، ولكنه كان واهما

وخابت آماله حين تمكن الأتابك شمس الدين إيلدكز ومعه الطفل أرسلان شاه بن طغرل السلجوقي من السيطرة علي بلاد العراق العجمي، واستطاع أن يرد كيد الخوارزميين وينتصر عليهم، كما استطاع استصدار أمر من الخلفية العباسي بإقراره علي بلاد العراق العجمي [٦].

ولما تولى خوارزم شاه تكش الأمر أخذ يسعى للقضاء على سلاجقة العراق الذين كان الضعف أخذ يدب فى أوصالهم، وتزامن اعتلاؤه العرش مع وفاة أرسلان شاه بن طغرل ووفاة شمس الدين إيلدكز،[٧] ودخول السلاجقة في صراع مرير مع أتابكة بني إيلدكز، واستغل تكش هذا الخلاف وأخذ يؤجج الصراع بينهما. وفي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٢م هجم طغرل الثالث علي الري واغتيال مجموعة من الخوارزميين والأمير طمغاج الخوارزمي حاكمها،[٨] استغل تكش هذه المذبحة ووجد فيها ما يبرر دخوله الحرب مع السلطان طغرل السلجوقي،[٩] لهذا جمع جيشه ودخل مع طغرل السلجوقي في معركة عنيفة بالقرب من الري، وتم القبض عليه ثم قاموا بقطع رأسه وحملوها إلى خوارزم شاه تكش الذي بعثها إلى بغداد حيث علقت هناك على باب النوبة [١٠].

كان انتصار تكش على طغرل الثالث إيذانا بانهيار سلاجقة العراق واستيلاء الخوارزميين على منطقة العراق العجمي، حيث سار خوارزم شاه تكش بعد مقتل السلطان طغرل إلى همذان واستولى عليها وجلس على عرش السلاجقة وأقطع كثيرًا من تلك البلاد لمماليكه [١١]. هكذا بمقتل طغرل الثالث سقطت الدولة السلجوقية التى سيطرت على هذه البلاد لأكثر من مائة وخمسين عاما، وكان سقوطها على إثر حادث اغتيال أدى إلي استيلاء الخوارزميين على ممتلكات السلاجقة فى إيران والعراق والعجمي.

والواقع أن تاريخ العلاقة بين الطرفين مليء بأحداث الاغتيالات التى كانت تحدث كردود أفعال بعضها لبعض، وكانت تتلاحق بصورة متتابعة فى جميع المناطق التي بسطوا نفوذهم عليها ولجميع الشخصيات حتي انتهي الصراع لأحد الطرفين.

- **الدولة الغورية (هـ/م).**

نتج عن اغتيال السلطان شهاب الدين الغوري علي أيدى الخوارزميين سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م أن اضطربت أمور الدولة الغورية وقام النزاع علي عرش السلطنة [١٢]، استغل خوارزم شاه حالة الفوضى هذه للقضاء على الدولة الغورية وتوسيع نفوذه علي حساب ممتلكاتها [١٣]، ومن هنا ازدادت الفرصة لدى السلطان علاء الدين خوارزم شاه ليحقق انتصارا على الغوريين وذلك لانقلاب ميزان القوى فى الدولة الغورية وقربها من النهاية نتيجة الصراع الأسرى الذي استمر بينهم حتى آل الأمر فى النهاية للسلطان غياث الدين محمود، فى الوقت الذي لم تصف فيه الأمور بينهم وبين الدولة الخوارزمية [١٤].

لم يستقر الحكم لغياث الدين محمود بل طمع فيه بعض أمرائه، مثل الأمير الحسين بن خرميل عندما علم بمقتل شهاب الدين الغوري اجتمع بأعيان الأمراء وأخبرهم باغتيال السلطان على يد السلطان الخوارزمي وطلب منهم المشورة والمساندة [١٥]، ثم أرسل إلى خوارزم شاه علاء الدين محمد وطلب منه المساعدة ضد الغوريين، وبالفعل أرسل إليه خوارزم شاه جيشا ليساعده فيما طلب ولم يتمكن السلطان غياث الدين محمود من إعادته إلى طاعته بعد أن أعلن انضمامه إلى خوارزم شاه، ولكنه انتهز فرصة خروج خوارزم شاه لمحاربة الخطا وخرج عن طاعته، ولكن خوارزم شاه أرسل من استطاع أن ينتصر عليه مرة أخرى سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م وعين خاله "أمير ملك" علي ما تحت يديه من البلاد [١٦]. وبعد ذلك استطاع خوارزم شاه الاستيلاء على بلخ وأخضع أميرها عماد الدين عمر بن الحسين الميرغني وقبل طاعته وذكر اسمه فى الخطبة وعلى السكة[١٧] وبعدها تمكن من الاستيلاء على بلاد الطالقان [١٨]. هكذا توالى سقوط ممتلكات الدولة الغورية الوحدة تلو الأخرى على يد الخوارزميين.

بعد أن استولى الخوارزميون على الممتلكات الغورية ضعف السلطان غياث الدين محمود ضعفا شديدا واضطربت أمور دولته، ولم يعد بإمكانه إعادة سيطرته على غزنة بسبب تحكم تاج الدين الدز الذي خطب لنفسه فيها [١٩]،

هنا استغل خوارزم شاه عصيان الدز وأرسل إلى السلطان الغوري غياث الدين محمود يعرض عليه المصاهرة ليسير معه إلى غزنة ويقضي علي الدز، فإذا ملكها اقتسموها أثلاثا، ثلثًا لخوارزم شاه وثلثًا لغياث الدين وثلث للعسكر، وتم الاتفاق وبقى دور التنفيذ [٢٠]، ويبدو أن خوارزم شاه كان يطمع من وراء ذلك في السيطرة على غزنة والقضاء على السلطة الغورية بها تماما [٢١]، إلا أن قطب الدين أيبك لما علم بخروج الدز عن طاعة الغوريين اتجه إلي غزنة وأعادها للغوريين مرة أخرى [٢٢]. وبهذه الصورة لم يؤد الحلف السابق بين خوارزم شاه وغياث الدين محمود إلى اتخاذ إجراء مشترك بينهما ضد الدز ولم يستطع خوارزم شاه تحقيق مأربه فى السيطرة على غزنة عاصمة الغوريين [٢٣].

من ناحية أخري بعد سقوط هراة وبلخ أصبح الدور على فيروزكوه ، فأمر خوارزم شاه خاله "أمير ملك" أن يتوجه إليها وأن يقبض على حاكمها غياث الدين الغوري وعلى أخيه علي شاه الخوارزمي الذي انشق علي خوارزم شاه وانضم إلى غياث الدين، وتم القبض عليهما وطلبا الأمان فأمنهما، إلا أنه غدر بهما بناء على أوامر علاء الدين خوارزم شاه وقام بقتلهما [٢٤]، وبذلك أصبحت البلاد الخراسانية تحت يد خوارزم شاه سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م وانقرضت أسرة محمد سام.[٢٥].

واصل علاء الدين سياسته التوسعية فى الممتلكات الغورية حتى استولى فى سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م على كرمان ومكران والهند وهرمز وخطب له فى بعض القلاع بعمان [٢٦]، وأصبح من القوة بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة عاصمة الغوريين، وبالفعل بعد اغتيال غياث الدين محمود أرسل خوارزم شاه إلى الدز يطلب أن يخطب باسمه ويرسل إليه فيلا ليصالحه [٢٧]، واستجاب الدز لمطالب خوارزم شاه إلا أن الأخير استطاع عن طريق الحيلة أن يدخل غزنة غفلة ويقتل كل الأمراء الغوريين بها حتى قتلغ تكين نفسه الذي أدخله إلى غزنة قام باغتياله، وفر الدز إلى لاهور فى بلاد الهند فأحضره خوارزم شاه وقتله [٢٨].

هكذا سقطت الأسرة الغورية على يد خوارزم شاه بعد اغتيال آخر سلاطينها العظام بإيعاز من خوارزم شاه، ثم قام خوارزم شاه بإنهاك قوى ورثته من بعده بالاغتيال السياسي والقتل تارة وبالحروب والحيلة تارة أخرى، إلى أن سقطت جميع الممتلكات الغورية فى يده، بعد سلسلة طويلة من الاغتيالات فى الأسرة الغورية مبتدئًا بشهاب الدين الغوري ثم غياث الدين محمود ثم بهاء الدين بن غياث الدين محمود ثم السلطان جلال الدين على بن بهاء الدين بن سام ثم محمد بن جربك الغوري ثم سلسلة طويلة من الأمراء الغوريين، وانتهى به الأمر إلى مذبحة جماعية لمن بقى من أمراء الغور [٢٩].

- **دولة الخطا:**

كان اغتيال رسول الخطا سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧م هو بداية النهاية لدولة الخطا، وفي هذا الوقت كان علاء الدين خوارزم شاه قد بدأ التفكير فى القضاء عليهم والاستحواذ على كل الأراضى الواقعة تحت سيطرتهم، وخاصة بعد القضاء على دولة الغوريين، لذا بدأ فى التخطيط وإعداد العدة لهذا الغرض، فأخذ يتحين الفرصة المناسبة لذلك وجاءته هذه الفرصة عندما جاءه رسول الخطا لأخذ الجزية السنوية وتجرأ الرسول وجلس إلى جانب السلطان الخوارزمي، لهذا أمر خوارزم شاه أن يرمى هذا الرسول ومن معه فى مياه نهر جيحون [٣٠]، ومن المؤرخين من ذكر أن السلطان قتله شر قتلة بشطره نصفين [٣١]، ولعل خوارزم شاه أراد بهذا الصنيع إعلان الحرب علي الخطا، وخاصة بعد مراسلة نصرة الدين عثمان صاحب سمرقند للسلطان الخوارزمي ورغبته فى التخلص من تبعيته لكورخان الخطا، ثم دخل مع الخطا فى عدة حروب أسفرت عن هزيمة الخوارزميين، وأسر السلطان الخوارزمي نفسه، واستطاع بحيلة أن يغادر أسر الخطا [٣٢].

جاءت الخطوة الثانية فى القضاء على دولتهم عندما قام بإعدام القائد القراخطاي "طاينكو" بعد أسره فى معركة حامية مع القراخطائيين سنة٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م [٣٣]، عند ذلك تفرق جيش الخطا، وانساحت القوات الخوارزمية فى

قلب بلاد ما وراء النهر فملكوها مدينة مدينة وناحية ناحية، حتى وصلوا إلى "أوزكند" عاصمة دولة الخطا فعين بها نوابا له، ورجع إلى خوارزم مصطحبا معه سلطان سمرقند [٣٤]، وربما كان سقوط سمرقند فى يد الخوارزميين ووقوعها فى يد علاء الدين خوارزم شاه أكبر الأثر فى نهاية دولة الخطا.

استغل كشلوخان الصراع بين خوارزم شاه والخطا، أوعز إلى كورخان بأنه يستطيع أن يجمع أتباعه ويكون جيشا كبيرا يقف به إلى جانب كورخان ضد مطامع خوارزم شاه. ويبدو أن كورخان اقتنع بهذه الفكرة فقام بجمع جنوده وأظهر لكشلوخان أنه تابع مخلص له، إلا أنه عندما شعر بضعفه غدر به فوقع الصراع بينهما [٣٥]. فاستغل خوارزم شاه هذا الصراع وأظهر لكل منهما أنه معه، وسارت القوتان المتعاديتان لمحاربة كل منهما الأخرى، وكل منهما يظن أن الجيوش الخوارزمية فى جانبه، وكلاهما يظن أن الجيش الخوارزمي جاء ليؤازره [٣٦]، أما خوارزم شاه فقد وقف بين هاتين القوتين موقف المتفرج ينتظر رجحان كفة إحداهما على الأخرى لينضم إلى القوة المنتصرة [٣٧]، أسفرت الحرب بينهما عن هزيمة الكورخان فانضم علاء الدين إلي جانب كشلوخان وأخذ يقتل ويأسر وينهب ولم يترك أحدًا من الخطا ينجو، ونجح كشلوخان بمساعدة علاء الدين فى القضاء على دولة الخطا [٣٨].

نتج عن سقوط دولة الخطا آثار غاية فى الخطورة بالنسبة للعالم الإسلامي، وذات أبعاد خطيرة على مستقبل الدولة الخوارزمية والشرق الإسلامي عامة، وذلك لأن أملاك كشلوخان جاورت أملاك الخوارزميين، مما جعل خوارزم شاه فى موقف لا يحسد عليه لأن كشلوخان فر من وجه جنكيزخان، ولا بد أن تنشب بينهما معركة مصيرية، فوجهت أنظار جنكيزخان نحو الأقاليم الغربية من آسيا، حيث دولة كشلوخان عدوه القديم [٣٩]، وبذلك يعتبر سقوط دولة الخطا بداية النهاية للدولة الخوارزمية ذاتها، وهذا ما سوف يتضح فيما بعد.

- **أتابكة أذربيجان[٤٠]:**

أسفر اغتيال السلطان طغرل الثالث السلجوقي والقضاء على الدولة

السلجوقية، عن انفراد أتابكة بني إيلدكز بحكم بلاد أذربيجان وبلاد الجبل، ولكنهم كانوا من الضعف والاختلاف بحيث استطاع علاء الدين خوارزم شاه أن يفعل بهم ما شاء، وخاصة أنهم انقسموا فيما بينهم ودخلوا فى صراع أسرى مرير، خاصة بعد اغتيال الأتابك قزل أرسلان، حاول نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان أن يخلف عمه قزل أرسلان فى حكم البلاد ولكنه لم يوفق [٤١]، دخل أخواه قتلغ إينانج وأمير أميران عمرو فى صراع مع بعضهم البعض، استغل الأمراء هذا الموقف واقتسموا بلاد العراق العجمي، واستطاع الأمير إيتغمش اغتيال نور الدين كوكجه سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، وسيطر هو على الأمور فى إقليم العراق العجمي وامتد سلطانه إلى بلاد أذربيجان [٤٢]، إلا أن إيتغمش أعطى ولاءه لخوارزم شاه مما أغضب منكلى الذي استطاع اغتيال إيتغمش سنة ٦١٢ هـ/١٢١٥م واستبد بحكم البلاد، وعاد كل من أوزبك بن البهلوان سيده، وأبي بكر بن البهلوان [٤٣] وفى النهاية تم اغتيال منكلى أيضا بأمر من خوارزم شاه، ثم كان اغتيال أغلمش – ربيب خوارزم شاه وكان يعمل فى بلاط الأتابك أوزبك بن البهلوان– على يد الإسماعيلية سببًا مباشرًا لدخول خوارزم شاه فى حرب مع أتابكة أذربيجان للقضاء عليهم نهائيا والسيطرة على بلادهم [٤٤].

ومن الملاحظ أن الصراع بين هذه القوى المعاصرة كان يأخذ طابع النفاق السياسي وعدم الثقة، إلى جانب المواجهة العسكرية إذا تطلب الأمر، ولعل هذا ما أعطى لخوارزم شاه إمكانية انتصاره على القوى المتنازعة فى بلاد العراق العجمي، وما مكنه من استغلال هذا الصراع فى اغتيال بعضهم بيد البعض وهو بعيد عن مسرح الأحداث، وفى خضم هذا الصراع توفى الأتابك أمير أميران عمرو فى ظروف غامضة بعد أن تحالف مع الكرج وأصبح أبو بكر بن البهلوان هو سيد الموقف بعد موت قزل أرسلان وصفت البلاد له.[٤٥] ووضح أن البلاد عادت مرة أخرى إلى أبناء شمس الدين إيلدكز، إلا أن خوارزم شاه كان لهم بالمرصاد فقد وضع نصب عينيه منذ أن تولى عرش الدولة

الخوارزمية أن لا يبقى معه أحد فى المشرق الإسلامي.[٤٦]

انتهى أجل علاء الدين خوارزم شاه دون أن يحقق آماله ودخل التتار العالم الإسلامي، وبعد انحسار موجة التتار أخذ جلال الدين مكبرتي فى المشروع الذي كان قد بدأه أبوه من قبل [٤٧]، وحاول أن يستعيد سيطرته على بلاد الهند وفارس والعراق العجمي وكان المتحكم فى بلاد العراق فى ذلك الوقت مظفر الدين أوزبك بن أبى بكر بن البهلوان الذي تصالح مع التتار على بلاد أذربيجان وهمذان [٤٨]، وكثرت الفتن والحروب فى عهد أوزبك حتى أصبحت بلاده مطمعا للطامعين، سواء الإسماعيلية أو الخوارزميين أو صاحب فارس سعد بن دكلا، وتسابق الجميع للاستيلاء عليها [٤٩]، إلا أن خوارزم شاه تمكن من الاستيلاء عليهم وأجبر أوزبك على مغادرتها وترك مقاليد الأمور لزوجته التى أخذت تصرف شؤون دولته على قدر استطاعتها [٥٠]، لم تطل حياة أوزبك بعد ذلك فقد وافته المنية على يد خوارزم شاه، ولكن الاغتيال فى هذه المرة لم يكن بالسكين أو السيف ولكنه كان بالحسرة، فقد تزوج جلال الدين من زوجة الأتابك أوزبك، فلما علم بذلك مات حسرة وكمدا [٥١]، ولم يترك بعد أوزبك إلا ابنا أصم أبكم اسمه قزل أرسلان لقب بالأتابك الصامت "خاموش" الذي ذهب إلى جلال الدين منكبرتى وقبل الأرض بين يديه ثم سافر إلى قلعة الموت ومات فى ظروف غامضة هناك [٥٢].

هكذا انهارت أسرة بني إيلدكز على يد الخوارزميين وكان سلاحهم الأول فى ذلك هو الاغتيال والقتل والإبادة، سوء كان للأتابكة أم الأمراء أم المماليك، ولم يُبْقِ الخوارزميون على أحد منهم حتى إذا اعترف بحكمهم أو تبعيته لهم.

- **الدولة الخوارزمية:**

كانت حادثة مذبحة أترار على أيدى حاكم أترار خال علاء الدين خوارزم شاه بداية النهاية الحقيقية للدولة الخوارزمية، فهي تعتبر الشرارة التي فجرت رغبة جنكيزخان وجعلته يسرع فى التنفيس عن غريزته الطبيعية فى الذبح والحرق والتدمير، وبقدر ما كان جنكيزخان فى زحفه متحفزا قوى العزيمة شديد

الرغبة فى الانتقام بقدر ما كان علاء الدين خوارزم شاه مترددا لا يدرك ما يفعل بعد مذبحة التجار [٥٣]، حتى إن ابن الأثير يصفه بقوله "فندم خوارزم شاه على قتل أصحابهم وأخذ يفكر فى خطرهم، فاستدعى الشهاب الخيوقى واستشاره فى الأمر الذي وقع والخطر الذي يتهددهم، فأشار عليه بخطة فلما استشار أمراءه أشاروا عليه برأي آخر، وبينما هم في استشارتهم إذ ورد عليهم رسول جنكيزخان يتهددهم فردوا عليه بجواب الاستعداد للحرب"[٥٤]. ويري بارتولد أن مسالة اتجاه جنكيزخان لمحاربة الخوارزميين لا ترجع إلى مذبحة أترار؛ بل إنها ترتبط بخطة جنكيزخان فى الفتح والغزو، وذلك على حين أن الدراسة المقارنة لما ورد بالمصادر الإسلامية عن هذه الحرب يدل على أن خوارزم شاه سبب هذه الحرب أو على الأقل هو الذي عجل بقيامها.[٥٥]

والحقيقة التى لا يستطيع أحد أن ينكرها أن جنكيزخان لم يكن ليغفل أو يترك أحدًا فى قيادة العالم، فهو منذ البداية آمن بمبدأ "أن العالم دولة واحدة ويجب أن يكون له حاكم واحد "– وهذا ما تظهره المصادر المغولية – وهو ما يتضح من اللقب الذي اتخذه لنفسه وهو جنكيزخان أي بطل العالم أو سيد العالم، وهذا ما تؤكده الأحداث السياسية قبل وقوع المذبحة إلى عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، وحملهم رسالة ليبلغوها إلى السلطان مؤداها أن جنكيزخان ملك المشرق وخوارزم شاه ملك المغرب [٥٦]، وأنه يعتبر السلطان أعز أبنائه ويعرض عليه فى أسلوب ماكر قوته وعساكره، وعرض عليه أن يفتح للتجار فى الجهتين سبل التردد بين البلدين لتعم المنافع والخير بين البلدين [٥٧]، فهم علاء الدين خوارزم شاه ما تتضمنه هذه الرسالة من التهديد والوعيد وغضب غضبا شديدا، رغم ما يبدو فيها من ود ظاهر، فقد اعتبره الخان بمنزلة التابع له وليس علاقة سياسية تقوم على المساواة بين الطرفين[٥٨]، يقول بارتولد: "إنه من المشكوك فيه كثيرا أن يكون جنكيزخان دبر ذلك لاستفزاز خوارزم شاه بحيث يجعل الحرب أمرا لا مفر منه، ومهما يكن من شيء فإن القطيعة بين الطرفين لم تكن بسبب هذا الحادث، بل إن علاء الدين كظم غيظه خلال مقابلته للوفد

الذي أرسله الخان ثم صرف الرسل بعد أن رد عليهم ردا حسنا"[٥٩].

يؤيد القول القائل إن جنكيزخان لم يتعجل اللقاء بين الطرفين، ما حدث بعد ذلك عندما جاء ثلاثة من التجار الخوارزميين إلى بلاد المغول يحملون معهم بضائع مذهبة، فقبض عليهم المستحفظون وقادوهم إلى بلاط جنكيزخان، ولما أراد جنكيزخان انتزاع ما معهم من أموال وبضائع رجع فى الأمر وأكرمهم وأعطاهم أثمانا مجزية لما معهم من بضائع وعندما أرادوا العودة إلى بلادهم أرسل معهم مجموعة من التجار، وعندما وصلوا إلى مدينة أترار حدثت المذبحة التاريخية التى جرت على العالم الإسلامي البلاء [٦٠].

اختلف المؤرخون فى طبيعة هؤلاء التجار هل هم جواسيس أم تجار، والظاهر بعد عرض آراء المؤرخين أنهم كانوا يجمعون بين الفريقين فريق تجار وفريق جواسيس أصحاب أخبار، لأن حيل جنكيزخان الخادعة ودهاءه الماكر لم يعد يخفى أمره على أحد فأصبح معروفا على نطاق واسع، فلم يفت على السلطان الخوارزمي أن يشك فى أنه غالبا ما يخفى الجواسيس أصحاب الأخبار فى زى تجار مسالمين، لذا فقد شكت حكومة السلطان الخوارزمي فى حقيقة أمر تلك القافلة التجارية وأن ما ادعاه من أن هدفها كان تجاريا لم يكن إلا ظاهريا يخفى وراءه غير ذلك، لذلك فقد أقدمت السلطة الحاكمة على القبض عليهم وحكمت عليهم بالقتل [٦١].

ومما لا شك فيها أن السلطان علاء الدين أخطأ بقتله هؤلاء سواء أكانوا جواسيس أم تجارًا، وكان بمقدوره أن يتعامل مع الأمر بحنكة سياسية وخبرة دبلوماسية، إلا أنه لما كان يفتقد لهذه الحنكة، وكان جل اعتماده فى قيادته لشطر العالم الإسلامي على القدرة العسكرية وسفك الدماء فقط، لذلك كان منهج القتل والاغتيال والتصفية الجسدية هو الخيار الأول لديه، ورغم ذلك كان بمقدوره أن يفوت هذه الفرصة على جنكيزخان، إلا أننا نراه مرة أخرى يقدم على عمل بربري لا تفسير له إلا أنه ليس لديه أية حنكة أو خبرة سياسية، فعندما أرسل إليه جنكيزخان مجموعة من الرسل ليطلعه على حقيقة الأمر، أكان هذا

بأمره أم بغير أمره؟ نراه يقدم على قتل هؤلاء الرسل مرة ثانية وكأنه يعلن الحرب ويعطى لخصمه المبرر الذي يريده، على الرغم من أنه دخل فى مواجهة عسكرية من قبل مع جوجي بن جنكيزخان، وعلم بأس هؤلاء وقوتهم فى الحرب، وهو الذي انسحب تحت ظلام الليل من أمامهم بعد أن تمكن من قلبه الرعب والاعتقاد ببسالتهم وكان يقول عنهم " لم ير رجالا أكثر من رجالهم إقداما وثباتا على مضض الحرب وخبرة بقوانين الطعن والضرب"(٦٢).

"فيا لها من قتلة هددت بلاد الإسلام وجرت بكل نقطة دم سيلا من الدم الحرام"(٦٣). يعلق الجويني على مقتل التجار بقوله "إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء، كما كلفتهم كل شعرة من رؤوسهم مائة ألف من أرواحهم"(٦٤) ويا ليت شعري أنه بعدما فعل ما فعل، قام بالاستعداد لمواجهة الموقف بحزم وشجاعة، ولكنه أقدم على فعل تحير المؤرخون فى تفسيره، فقد قام بتفريق جيشه وعساكره ببلاد ما وراء النهر وبلاد الترك ولم يترك بلدا من البلاد إلا وضع له عساكر (٦٥)، وقام بإجهاد الرعية فى جمع المال حتى إنه جمع خراج ثلاث سنوات مما أدى إلى اضطراب الحالة الداخلية، وكان أولى به أن يقوم بضبط الأمن والأمان وتحقيق الاستقرار فى الداخل (٦٦)، فى حين قسم جنكيزخان جيشه وفق خطة محكمة فى توجيه ضربة قاضية للخوارزميين، ثم أخذ يجتاح الأقاليم الخوارزمية وكأنها خاوية على عروشها.(٦٧)

والعجيب أن خوارزم شاه لم يقف أمام المغول أو يحاول الدفاع عن بلاده ولكنه أخذ يفر أمامهم دون أن يلتقي بهم فى معركة فاصلة، فحتى ذلك الوقت كان حكام خوارزم يعتبرون أنفسهم لا يغلبون ولا يقهرون، ولكن الآية انعكست الآن، وأصبحت قدراتهم تتراجع وتنهار باستمرار أمام فيالق جنكيزخان (٦٨). ورغم أن قوة خوارزم شاه وكثرة عدد جيشه كانت أكبر من قوة جنكيزخان، إلا أن ضعف همته، والخلافات التى كانت بين قادة جيشه، وانتشار روح الخيانة والغدر بينهم، كل ذلك مكن جحافل المغول من اكتساح الدولة الخوارزمية فى

فترة قصيرة جدا، بالنسبة إلى عظم المساحة التى استولى عليها المغول بحد السيف فى مدة لا تزيد عن أربع سنوات [٦٩].

أما علاء الدين خوارزم شاه فقد غلب عليه الخوف والهلع وهام على وجهه لا يلوى على شيء، وزاد من رعبه ما بلغه من سقوط بخاري وما أصابه من تخاذل الناس عنه وتحالفهم مع المغول حتى أخواله، حينئذ انقطع أمله من البلاد، وأصبح كما يقول النسوى "ومن هناك ضعف الأمر وانشق العسكر وانفصمت العرى وانتقضت القوى، ولكل أمر انقراض كذلك يؤتى الله الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء"[٧٠] ووصل السلطان إلى جزيرة صغيرة منعزلة فى مازندران[٧١] وهناك توفى بعد أن كان عاهد الله بإقامة العدل بين الرعية إن كتب له السلامة ولكنه لفظ أنفاسه الأخيرة هناك [٧٢]. هكذا توفى السلطان وسقطت جميع المدن الخوارزمية فى يد المغول وتفرق الجيش الذي زاد تعداده عن مائتين ألف مقاتل وزالت الدولة التى أزالت جميع القوى المحيطة بها فى المشرق الإسلامي.

لم يكن عوامل زوال هذه الدولة مقتصرة على ما ذكره المؤرخون من ضعف النظام الحربي الخوارزمي وقوة النظم الاجتماعية والحربية عند المغول..إلخ ولكن يبقى أعظم هذه الأسباب أثرا وهى اعتماد هذه الدولة على القوة العسكرية وانتهاج منهج العنف والقسوة والقتل والاغتيال، حتى فى أصعب الأوقات وفى أحلك الظروف [٧٣]، بهذه السلسلة الطويلة من الاغتيالات قضت علي الدول والقوى الإسلامية الموجودة فى ذلك الوقت.

ومن جانب آخر افتقدت الدولة الخوارزمية لتعاطف الشعب والتفافه حولها فى أصعب الأوقات، ففي حالات كثيرة نجد أهل الأشخاص الذين تم اغتيالهم على يد السلطة الخوارزمية يقفون بجانب المغول، بل ويرشدونهم على مناطق الضعف فى الدولة الخوارزمية، مثلما حدث من بدر الدين بن العميد الذي لعب دور الخيانة، وكان يشغل وظيفة نائب الوزير الصفي الأقرع بأترار، فعندما نجح جنكيزخان فى دخول أترار حضر إليه ابن العميد الذي كان كارها للسلطان

علاء الدين بسبب قتله أباه وأعمامه وأبناء أعمامه، وأظهر لجنكيزخان أنه يحقد على السلطان حقدا شديدا قائلا له "لو قدرت على استيفاء ثأري منه ببذل روحي لفعلت"(٧٤)، وبدأ يشرح له مدى قوة السلطان العسكرية، وضرورة احترازه من أن تفريق السلطان لعساكره فى البلاد ليس إلا خطة مدبرة، ثم دله بعد ذلك على خطة الغرض منها التفرق بين خوارزم شاه وجنوده وبينه وبين أمه تركان خاتون، وتم الاتفاق على أن يزور ابن العميد كتبا على لسان الأمراء أقارب تركان خاتون يسوؤون فيها العلاقة بين السلطان وأمه، وبعث جنكيزخان بهذه الكتب إلي خوارزم شاه من ناحية وإلي أمه من ناحية أخري بيَّن للطرفين سوء نية الآخر، حتى إنه حرض تركان خاتون على ابنها وبيَّن لها أنه لن يتعرض لها بقوله "ولست بمعترض إلى ما تحت يدك من البلاد فإن أردت ذلك بعثت إليَّ من يستوثق لك منى فأُسلم لك خوارزم وخراسان وما يتبعهما من قطاع جيحون"(٧٥).

لم يقف هذا الأمر عند ابن العميد وحده، ولكن فعله أيضا ركن الدين كبودخان، وهو من أكبر قواد خوارزم شاه، فقد انضم إلى جنكيزخان بسبب مقتل عمه نصرة الدين وابن عمه عز الدين كيخسرو بأمر من خوارزم شاه، لذلك قرر ركن الدين الانتقام من السلطان خوارزم شاه وشارك المغول فى هجومهم على البلاد وسهل لهم ذلك(٧٦). بل انضمت مجموعات كبيرة من جيوش خوارزم شاه، وخاصة من قبيلة القنقلي، إلى صفوف جيوش المغول حقدا أو خيانة أو عدم ولاء، وذلك لأن خوارزم شاه قتل أفرادا من أسرهم (٧٧)، ولعل هذا ما دفع السلطان علاء الدين إلى عدم تسليم إينال لجنكيزخان حين قتل التجار خوفا من روح الخيانة المنتشرة بينهم فآثر عدم تسليمه.

لم يقف أمر زوال الدولة الخوارزمية عند ذلك، ولكن كان من أكبر الآثار التى ترتبت على انتشار ظاهرة الاغتيال التى اتسمت بها هذه الدولة هي كراهية الشعب للسلطة الخوارزمية، فقد كان أهل البلاد يكرهون السلطان علاء الدين خوارزم شاه بسبب كثرة اغتياله وقتله للأبرياء، وكذلك بسبب تصرفات

جنده الأتراك الذين لم يراعوا عدلا أو رحمة فى معاملتهم للسكان، ويذكر الجويني ذلك قائلا "لقد كانت الرحمة والشفقة بعيدين كل البعد عنهم ونزعت من قلوبهم، فأي بلد مروا به أو حلوا فيه فإنهم يقومون بتدميره وقتل كل من يقف أمامهم فيهرب السكان ويلتجئون إلى أماكن حصينة ويطلبون الأمان داخل أسوارها، ولا يحتفظون بعهود ولا مواثيق، ففي حقيقة الأمر كانت تصرفاتهم الرعناء الهمجية وعنفهم وأرواحهم الشريرة هي التى تسببت فى سقوط أسرة السلطان"(٧٨) حتى علماء الدين أنفسهم كرهوا حكم السلطان علاء الدين، وذلك لأنه قام بالقبض على الأئمة والأعيان فى بلاد ما وراء النهر وأجبرهم على الرحيل، وقام بنشر دعاية واسعة على أنه ينوي قصد بغداد على رأس حملة عسكرية ضد بني العباس، بل إنه أمر بحذف اسم الخليفة العباس الناصر من الخطبة (٧٩)، كذلك كانت تركان خاتون بهمجيتها وقسوتها وحبها لسفك الدماء من أكبر أسباب زوال الدولة، ولعل ما أقدمت عليه عندما خرجت من خوارزم باغتيالها لأكثر من اثنى عشر أميرا وملكًا من ملوك الإسلام يعتبر من أسباب تعجيل زوال هذه الدولة، فربما لو تركتهم لجمّع بعض منهم جيشا وقابل به التتار واستطاع أن ينتصر عليهم(٨٠).

هكذا كانت الاغتيالات والقتل وسفك دماء الأبرياء، سببا مباشرا لزوال هذه الدولة التى سيطرت على المشرق الإسلامي في أقل من خمسين سنة، تحت قوة السلاح ولم ترع حرمة الدماء ولا عصمت الأعراض، حتى ولو كانوا مسلمين.

٢- اجتياح المغول للعالم الإسلامي.

بعد أن قضى جنكيزخان على علاء الدين وتأكد أنه مات، وفر أمامه جلال الدين منكبرتى بعد حرب السند، استطاع السيطرة على كل بلاد خوارزم شاه، وعاد إلى بلاده عام٦٢٤هـ/١٢٢٧م، ثم توفى جنكيزخان هناك وانصرف المغول عن كل شيء واهتموا بمعالجة شؤونهم الداخلية والإعداد لانتخاب خان جديد، فى ذلك الوقت كان جلال الدين يكون جيشا كبيرا فى الهند، واستغل فرصة

انشغال المغول وصمم على العودة إلى وطنه ليسترد ملك آبائه وأجداده، فعبر نهر السند عام٦٢٢هـ/١٢٢٥م وقصد إيران وهو يحمل فى نفسه ضغينة وحقدا من هؤلاء الذين مهدوا لوقوع هذه الكارثة بسبب تخاذلهم وضعفهم وفى مقدمتهم الخليفة العباس.

فى الوقت نفسه استغل حكام الأقاليم هذه الظروف واستقلوا بحكم ولاياتهم فى خراسان ومازندران والعراق العجمي، وكانوا جميعا لا يزالون على أنانيتهم وخلافتهم وضيق آفاقهم، فوجد جلال الدين بأنه لا مفر من الاصطدام بهذه القوى المفككة، وأن يقوم بسلسلة كبيرة من الحروب والمخاطر، التى سجلها النسوي فى كتابه سيرة السلطان جلال الدين، فحارب أخاه غياث الدين وحارب ملوك كرمان وفارس وأتابكة أذربيجان وأخضع أقاليم أصفهان حتى أصبح يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية واستطاع أن يخضع الخليفة العباس نفسه وانتصر على جيوشه، وبعد ذلك هادنه واصطلح معه، وسار إلى جورجيا وسقطت فى يده عاصمتها، وحارب الإسماعيلية وانتصر عليهم وأجبرهم أن يلزموا قلاعهم، وانتزع خلاط من يد صاحبها الأشرف موسي الذي كون حلفا ضد جلال الدين وشمل هذا الحلف أمراء الموصل وانضم إليهم علاء الدين كيقباذ(٨١)، وعلى الرغم من أنهم انتصروا عليه إلا أنهم سعوا لعقد الصلح معه على أن يقنع كل حاكم بالبلاد التى تحت يده، ورغم ذلك فإن حكام المسلمين لم تكن نياتهم خالصة فلم يقفوا صفا واحدا ويضعوا أيديهم فى يد جلال الدين بل إنهم تركوه وحده أمام عدو جبار بات يهدد كيانه وكيانهم(٨٢).

فى ذلك الوقت تم انتخاب اوكتاى بن جنكيزخان خانًا أعظم للمغول، وجهز جيشا كبيرا واندفع به نحو العالم الإسلامي وسارت هذه القوات المغولية التى لا تعرف معنى للحضارة ولا قيمة للدماء ولا معنى عندهم للإنسانية، سارت إلى إيران فاستولت على الري وهمذان ووصلت إلى حدود أذربيجان، وكان هدفهم الأكبر هو القضاء أولا على جلال الدين منكبرتى؛ لأن هذا يكفل لهم فى سهولة إحكام سيطرتهم من جديد على أقاليم الدولة الخوارزمية، عندما شعر

جلال الدين بالخطر الداهم الذي يتهدد العالم الإسلامي من جديد، أخذ يدعو أمراء المسلمين إلى التحالف معه للوقوف صفا واحدا فى وجه هؤلاء الأعداء، ويذكرهم ويقول لهم "إن جيشا جرارًا من المغول كأنه النمل والثعابين تحرك نحونا فإذا ترك وشأنه فلن تصمد أمامه قلاع ولا أمصار فإذا أنا هزمت وخلا مكاني من بينكم فلن تستطيعوا مقاومة هذا العدو، إذ أنا لكم بمثابة سد الإسكندر، فليسارع كل منكم إلى إمدادنا بفوج من الجنود حتى إذا ما وصلهم نبأ اتفاقنا واتحادنا فترت قوتهم وفت فى عضدهم فيتشجع جنودنا وتقوى قلوبهم"(٨٣)، لكن للأسف ذهبت جهوده أدراج الرياح وترك وحده فى المعركة، وكان مصيره أن هام على وجهه حتى بلغ قرية من قرى ميافارقين، وهناك لقي مصرعه على يد أحد الأكراد (٨٤).

هكذا طويت الصفحة الأخيرة من صفحات هذه الأسرة، وكان انطواء هذه الصفحة هو بداية النهاية لصفحات الدول الإسلامية المجاورة، فلم يقف أمام المغول قوى تذكر ولم يقم للمسلمين قائمة، اللهم ما كان من قطز حاكم مصر فى نهاية المطاف بعد أن اجتاح المغول العالم الإسلامي.

بعد أن تخلص المغول من أخطر عدو استطاع أن يواجههم فى بسالة منقطعة النظير، أصبح الطريق أمامهم ممهدا للفتح والغزو دون أن يعوقهم عائق، فشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية ونشروا فيها الخراب والدمار، فقسم المغول قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسة، فتح الجيش الأول ديار بكر وارزن الروم وميافارقين وماردين ونصيبين وسنجار حتى وصل إلى ساحل نهر الفرات، واشتط جنود المغول فى القتل والسلب والنهب والتخريب دون أن يجرؤ أحد من سكان هذه المناطق على مقاومتهم أو الوقوف أمامهم، أما الجيش الثاني قصد مدينة بدليس وقلاع خلاط واستطاع أن يفتحها ويدمرها، وسار الجيش الثالث إلى إقليم أذربيجان وشرع يفتح مدنها حتى وصل عاصمتها تبريز، فسلمت دون مقاومة، ثم ساروا إلى إربل وبعد حصار دام أربعين يوما افتدى الأهالي أنفسهم بمبالغ كبيرة من المال، فرحل المغول عنهم عندما سمعوا

أن مددا جاءهم من بغداد[٨٥].

لما فرغ المغول من بلاد العراق العجمي وبلاد الشام تجمعوا سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م وانتقلوا إلى بلاد العراق العربي وواصلت القوات المغولية زحفها حتى وصلت إلى سامراء، فلما شعر الخليفة العباسي بما يتهدده من خطر أعلن الجهاد فتجمع جيش كبير استطاع أن يهزم المغول بالقرب من تكريت، إلا أنه لم يمض عام على هذا النصر حتى عاود المغول الكرة حيث هزموا المسلمين وقتلوا أعدادًا كبيرة منهم[٨٦]، وفى نفس الوقت كانت هناك قوات مغولية فى الشمال تواصل زحفها فهاجموا جورجيا واحتلوها وفتحوا كل مدنها حتى وصلوا إلى عاصمتها تفليس، كذلك فعلوا فى أرمينية الكبرى وخربوا عاصمتها "أنى" وقتلوا كثيرا من أهلها، كما سيطر المغول سيطرة كاملة على الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية دون أن يجدوا أدنى مقاومة تذكر، فسلمت لهم سجستان وغزنه وكابل وحدود السند، وفى سنة٦٤٠هـ/١٢٤٣م جمع غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم جيشا كبيرا لمحاربة المغول وعندما التقى الفريقان فى مكان يسمي "كوشة طاغ"[٨٧] أي الجبل الأقرع دارت معركة عنيفة أسفرت عن انتصار المغول ودحر سلاجقة الروم حتي وقعت بلاد الأناضول كلها في قبضة المغول، وبهذا قضي علي استقلال دولة سلاجقة الروم [٨٨].

بعد إخضاع المغول جميع هذه البلاد لم يبق أمامهم إلا الخلافة العباسية ومصر، وكانت الأحداث قد تطورت مع المغول وتولى "منكوقا آن" عرش المغول فجهز حملة كبيرة وأعد لها كل ما يلزم من الرجال والعدة والعتاد، ورسم لأخيه هولاكو خان الخطة التى سوف يتبعها فى فتح هذه البلاد فقال له[٨٩] "إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، سر إلى إيران، وحافظ على تقاليد وتعاليم جنكيزخان وقوانينه فى الكليات والجزئيات وخص من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك من جيحون حتى أقاصي البلاد فى مصر بلطفك وعطفك وإنعامك، أما من يعصاك فأغرقه فى الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه، ثم توجه إلى العراق فإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا

تتعرض له مطلقا أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالهالكين"[٩٠] وفى طريقهم قضوا على طائفة الإسماعيلية فى قهستان، ولعل الدافع وراء القضاء عليهم هو اتصالهم بالنصارى فى إنجلترا وفرنسا، كذلك رغبة المغول فى إزالة الدولة العباسية، لذلك أدركوا أن طائفة الإسماعيلية ستكون شوكة فى ظهورهم وسوف تحول دون تحقيق إقناعهم فى السيطرة على القسم الغربي من العالم الإسلامي، لذلك أصر هولاكو على أن يقضي عليهم قضاء مبرما، فخرب قلاعهم ولم يبق لهم أي أثر[٩١].

وبعد أن حقق هولاكو خان هدفه الأول في القضاء على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد، وبالفعل جمع جيشه، وفى يوم الأحد الموافق الرابع من صفر سنة ٦٥٦هـ /العاشر من فبراير١٢٥٨م خرج الخليفة من بغداد وسلم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط بعد أن وعده هولاكو بالأمان واصطحب معه ١٢٠٠ شخص من علية القوم، فلما وصلوا إلى معسكر هولاكو أمر بوضعهم فى مكان خاص وتقسيمهم جماعات وقبض على الخليفة، ثم قام بقتلهم جميعا[٩٢].

هكذا سقطت الخلافة العباسية التى استمرت أكثر من خمسة قرون تحكم أكثر من ثلثي العالم آن ذاك، ولعل سائلًا الأن يسأل لماذا زالت هذه الخلافة؟ ولماذا زالت هذه الدول؟ وما الذي أدى بهذه الإمبراطورية العظيمة أن تسقط تباعا بهذه السهولة؟ وتتعدد الإجابات وتتنوع وفق السنن الكونية وأطوار الدول، إلا أنه لا نجد إجابة على هذا السؤال أقرب إلي الدقة من كلمة واحدة وهى "الاغتيالات والقتل والخيانة والغدر" الذي أصبح منهجًا فى هذا العصر الذي لم يعف منها حاكم أو محكوم، أمير أو وزير، قوي أو ضعيف،....إلخ لقد كان عصرا أعلن فيه الجميع أن القتل هو أول وأسهل وسيلة لتحقيق الأهداف والغايات، وأعلنوا جميعا أن الغاية تبرر الوسيلة، وأن الأهداف السامية لا بد أن تتحقق بأسعار عالية.

كان هجوم المغول على العالم الإسلامي مثل الطوفان أو السيل الجارف،

الذي قضي على الحضارة والمدينة، والأمر الذي لا شك فيه أن جنكيزخان وأتباعه يعتبرون من أكبر سفاكي الدماء على الإطلاق، الذين تجردوا من كل شفقة ورحمة، حتى إن الدماء التي سفكت بأمره والعمران الذي خرب على يده، قد يندر أن يحدث مثله فى أي فترة من فترات التاريخ، وخصوصا أن جنكيزخان كان شديد الميل إلى الأخذ بالثأر والانتقام من عدوه، وأن القتل العام عنده وإفناء الألوف من الأنفس وإبادة النساء والأطفال والشيوخ بإشارة منه، إنما هو فى نظره أمر يسير لا تقوم دونه عقبات ولا تعترضه صعوبات.

أقام جنكيزخان صرحا للفزع بواسطة نظامه الصارم الذي شرعه وبواسطة المذابح الرهيبة التى أقامها، ويمكن القول إن ما فعله الخوارزميون لا يفترق عما فعله المغول من حيث الغلظة والشدة والسفك والبطش، فلم يكن عندهم وسيلة أخرى سوى تحكيم السيف وشن الحرب وأن القتل العام الذي فرضه علاء الدين خوارزم شاه على السكان[٩٣] مثلما فعله في سمرقند وما أنزله فى سنة٥٩٠هـ /١١٩٤م جنود أبيه تكش بأهالي العراق من مذابح ونكبات وقتل وتشريد، فيه إشارة عن هذه القسوة التى اتسم بها سلاطين هذه الدولة [٩٤]، لذلك لا تعجب أن عامل المغول هذه الدولة بنفس السلاح الذي استخدمه الخوارزميون مع خصومهم، لذلك سلط الله عليهم عدوا كان شعاره عندما وقف أمام عتبة المدينة والحضارة نادي فى قومه قائلا "مزقوا هؤلاء الأعداء إربا إربا، اطردوهم أمامكم، استولوا على ممتلكاتهم، علقوا من يحبونهم على أسلحتكم، حطموا نساءهم وأبناءهم" وكانت أسعد الأوقات عنده هي التى يحطم فيها قوى أعدائه ويطاردهم ويرى دموع الألم تتساقط من أعين نسائهم وأطفالهم، وهو الوقت الذي يستطيع فيه أن يركب خيولهم ويمتلك بناتهم ونساءهم[٩٥].

يكاد يجمع المؤرخون على أن المغول كانوا قساة القلوب وحشيي الطباع، وأنهم كانوا كالسيل المدمر لم يسلم إنسان ولا حيوان ولا زرع من ضررهم وأذاهم، ولا يختلف فى ذلك مؤرخو الشرق عن مؤرخي الغرب، ولا مؤرخو العصور الوسطى عن إخوانهم فى العصور الحديثة [٩٦]، لذلك وصف بن الأثير دخول

التتار إلى بلاد الإسلام بقوله "هي الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها أو يدانيها"(٩٧). ومن العجيب أن ابن الأثير قال هذا الكلام قبل أن يكتمل الحدث ويعظم الخطب، فإنه مات سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م قبل دخولهم العراق وسقوط الخلافة، فما ظنه لو حضر سقوط الخلافة؟! ويذكر الجويني الأرض التى اكتسحها المغول لم يبق بها واحد من ألف من سكانها الأصليين، كما ذكر أنه لو زاد السكان باضطراد دون أن يحول دون ذلك حائل من الحوائل وذلك فى خراسان والعراق حتي يوم القيامة لما بلغ سكانها عشر ما كانوا عليه قبل الغزو المغولي"(٩٨)، أضف إلى ذلك أن "دوسون" المعجب بهم لم يجد بُدًّا من الإقرار بالحقيقة فذكر أنهم فاقوا فى قسوتهم أشد الناس، فكانوا يقتلون فى الأقاليم التى يفتحونها الرجال والنساء والأطفال ويحرقون المدن والقرى ويحولون الأرض العامرة إلى صحارى، ومع ذلك فلم يكن يحركهم كره أو رغبة فى الانتقام، لأنهم لم يعرفوا أسماء الناس الذين يقتلونهم، كانوا يعاملون البقايا الضعيفة فى الأمم المفتوحة كعبيد لهم، وأثقلوا على الذين نجوا من سيفهم بظلمهم المخيف وكانوا يحتقرون كل شريف.....(٩٩).

الخاتمة:

تنوعت الآثار والنتائج المباشرة وغير المباشرة التى ترتبت على انتشار ظاهرة الاغتيال بالمجتمع الخوارزمي، والتي أودت فى النهاية بالإجهاز على هذه الدولة التى سيطرت على المشرق الإسلامي، ولم تكن هذه النتائج والآثار مقتصرة على الدولة الخوارزمية وحدها، ولكنها أصابت العالم الإسلامي كله وحضارته، ولم يكن أحد يتوقع أن دماء ثلة بسيطة من المغول سوف تراق من أجلها دماء المسلمين فى العالم الإسلامي، وعلى رأسهم دماء خليفة المسلمين الذي تربع على عرش الدولة العباسية خمسة قرون، وحكم أكثر من ثلثي العالم، فيا لهم من قتلة كفر المسلمون عنهم بسيل من الدماء، كما كلفتهم كل شعرة من رؤوسهم مائة ألف من أرواحهم.

الهوامش:

(١) ابن الأثير (عز الدين على بن محمد الشيباني): الكامل في التاريخ. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط٤، ٢٠٠٣ م ، ج١٠، ص٦٧٧,٧

(٢) عطا ملك الجويني: تاريخ فاتح العالم (جهان كشاي)" ترجمة محمد التونجي ، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٥م ، ج٢،ص٤.

(٣) خواندمير (غياث الدين همام الدين الحسيني): حبيب السير في أخبار أفراد البشر، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، ص٦٣٠

(٤) البنداري (الفتح ابن علي ابن محمد الأصفهاني): مختصر تواريخ آل سلجوق، مطبعة الموسوعات ، مصر ، ١٩٠٠م ، ص٢٥٧.

(٥) عبد النعيم حسنين: سلاجقة العراق وإيران، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ،١٩٥٩م ، ص١١٧.

(٦) بارتولد "فاسيلى فلاديمير وفيتش": تركستان من الفتح العربي حتي الغزو لمغول، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨١م ، ص٤٨٠.

(٧) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، مطبعة الموسوعات ، مصر ، ١٩٠٠م ، ص١٥٣.

(٨) الراوندى (محمد بن على بن سليمان): راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥م ، ص٥٠٦.

(٩) ابن الأثير: نفس المصدر ، ج١٢، ص١٠٧.

(١٠) ابن العبري"جريجوريوس أبو الفرج": تاريخ الأزمنة، ترجمة شادية توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٧م ، ص٢٢٨.

(١١) الراوندى: نفس المصدر، ص٥١٩، خواندمير: نفس المصدر، ص٦٣٨.

(١٢) الخزرجى (علي بن الحسن): العسجد المسبوك، دار البيان، بغداد ١٩٧٥م، ص ١١٢.

(١٣) ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٢، ص٢١٢. بعد مقتل شهاب الدين اجتمع أمراء الدولة الغورية عند وزيره "مؤيد الملك ابن خوجا" وتحالفوا على حفظ الأموال ولزوم السكينة إلى أن يتم الاتفاق على من يتولى الأمر، إلا أن "تاج الدين الدز" مملوك

السلطان شهاب الدين الغوري ادعى السلطنة لنفسه وأظهر أنه نائب غياث الدين محمود الغوري واستولى على الأموال والخزائن وكاتب أمراء الدولة الغورية يستدعيهم للحضور إلى غزنة نتيجة عن هذا الصراع الأسرى الذي ظهر بين غياث الدين محمود بن غياث الدين الغوري وصاحب باميان بهاء الدين سام ابن أخت شهاب الدين، حيث تدخل المماليك والوزراء فى هذا الصراع وعلى رأسهم الدز، وبموت بهاء الدين اشترك أبناؤه من بعده فى هذه الصراع، ابن الساعي (تاج الدين أبو طالب): الجامع المختصر، دار الغرب، تونس، ط،٢٠٠٩م ، ج٩، ص١٧٢.

(١٤) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق سعيد عاشور. ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م ،ج٢٦، ص١٠٧، ولمزيد من التفاصيل انظر ص ١٠٨ وما بعدها.

(١٥) عفاف صبرة:التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ط١، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٨٧م ، ص١١١.

(١٦) خواندمير: نفس المصدر، ص٦٤٣.

(١٧) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي): العبر وديوان المبتدأ والخبر،دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٠م ، ج٥، ص٢١٦.

(١٨) ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٢، ص٢٤٥.

(١٩) قاضى منهاج سراج (صدر جهان أبو عمرو عثمان): طبقات ناصري، ترجمة ملكه علي التركي،المركز القومي للترجمة، ط ١، ٢٠١٢م ، ج١، ص٣٠٧.

(٢٠) الخزرجى: نفس المصدر، ورقة رقم ١١٥.

(٢١) لما علم الدز بهذا الصلح جزع جزعا شديدا واتصل بالسلطان الغوري سائلا عن السبب وراء هذا الصلح فذكر أن السبب الرئيسي وراء ذلك هو عصيانه للسلطان الغوري، لذا بدأ الدز يستولى على بعض المناطق التابعة للغوريين، وإلى جانب ذلك حاول تحريض حاكمي سجستان وهراة من أجل تركهما لطاعة السلطان الخوارزمي، وتحريض بعض الشخصيان من البيت الغوري نفسه. حنان اللبودي: شاهات خوارزم، ص ٣٠٦.

(٢٢) بارتولد: نفس المرجع، ص٥٠٧.

(٢٣) ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٢، ص٢٦٥، ابن خلدون: نفس المصدر، ج٥، ص٨٨٩.

(٢٤) أبو الفدا (السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية (د.ت) ، ج٣، ص١١٠، النويري: نفس المصدر، ج٢٦، ص١٢٠.

(٢٥) الجوزجاني: نفس المصدر، ج١، ص٥٥٠.

(٢٦) ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٢، ص ٣٠٣- ٣٠٤.

(٢٧) الجويني: نفس المصدر، ج٢، ص١٦٨- ١٨١.

(٢٨) ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٢، ص٣٠٩، الجوزجاني: نفس المصدر، ج١، ص٥٥٠.

(٢٩) ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٢، ص ٣٠٣ وما بعدها، الجويني: نفس المصدر، ج٢، ص١٥١.

(٣٠) بارتولد: نفس المرجع، ص٥٠١.

(٣١) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ، دار الفكر العربي ١٩٤٩م ، ص٥١.

(٣٢) ولمزيد من التفاصيل انظر ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٢، ص٢٦٣، الديار بكرى: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، ج٢، ص٣٦٧.

(٣٣) ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٢، ص٢٢٥، الجوزجاني: نفس المصدر ، ج١، ص٥٠٨.

(٣٤) فامبري "أرمنيوس": تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتي العصر الحاضر، ترجمة أحمد الساداتي، مكتبة نهضة الشرق ، ص١٥٤، وعلي إثر هذا النصر ازداد السلطان فخرا وأحس أنه الأوحد في المشرق الإسلامي ولقب نفسه " إسكندر الثاني" وظل الله علي الأرض" وهو اللقب المضل عنده، انظر بارتولد: نفس المرجع، ص٥٠٢.

(٣٥) الجويني: نفس المصدر، ج٢، ص١٥١.

(٣٦) الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، ط الثانية ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣م ، ج٥، ص١٦.

(٣٧) ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٢، ص٢٩٥.

(٣٨) بارتولد: نفس المرجع، ص٥٢٨.

(٣٩) ميرخواند (محمد بن خواند شاه): روضة الصفا: جـ ٤، طبع طهران، ١٢٧٠هـ /١٨٥٠م ، ج٥، ص ٦٩- ٧١، الجويني: نفس المصدر، ج٢، ص٣٧٠.

(٤٠) لتفاصيل عن أتابكة بني إيلدكز انظر رسالة أذربيجان في عهد أتابكة بني إيلدكز للباحث.

(٤١) الراوندى: نفس المصدر، ص٥٠٢.

(٤٢) الحسيني: نفس المصدر، ص١٩١.

(٤٣) عباس إقبال اشتيانى: تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية. ترجمة عبد الوهاب علوب . ط المجمع الثقافي . أبو ظبي ٢٠٠٠م ، ص٣٠٥.

(٤٤) ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٠، ص ٢٣٣.

(٤٥) رشيد الدين فضل الله الهمداني: جامع التواريخ ، ترجمة فؤاد الصياد ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٣ م ، مج٢، ج٥، ص١٩١.

(٤٦) خواندمير: نفس المرجع، ص٥٣٥.

(٤٧) الراوندى: نفس المصدر، ص٥١١.

(٤٨) البنداري: زبدة التواريخ، ص٣١٤.

(٤٩) النسوي (محمد بن أحمد ت٦٣٩هـ/ ١٢٤١ م): سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى . تحقيق حافظ حمدي. ط ، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٣م ، ص ١٥٨.

(٥٠) إقبال: نفس المرجع، ص٣١٧،

(٥١) الجويني: نفس المصدر،ج٢، ص٨.

(٥٢) الجوزجاني: نفس المصدر، ج١، ص٤٦٢، إقبال: نفس المصدر، ص٣١٧.

(٥٣) عفاف صبرة: نفس المرجع، ص١٧١.

(٥٤) الكامل: ج٩،ص٣٣١.

(٥٥) بارتولد: نفس المرجع، ص ١٤٩.

(٥٦) الجوزجاني: نفس المصدر، ج١، ص٤٦٢.

(٥٧) النسوي: نفس المصدر، ص ٨٤.

(٥٨) حافظ حمدي: نفس المصدر، ص ٤٨.

(٥٩) تركستان ، ص١٥٠.

(٦٠) ابن العبري: تاريخ الأزمنة، ص٢٣٠.

(٦١) الغامدي: نفس المرجع، نقلا عن ج. ج. ساووندرز: تاريخ الفتوحات المغولية، ص٥٥

(٦٢) النسوي: نفس المصدر، ص ٤٨،

(٦٣) النسوي: نفس المصدر، ص ٨٨.

(٦٤) جهان كشاي: ج٢، ص١٥٤.

(٦٥) النسوي: نفس المصدر، ص ٩١.

(٦٦) يذهب المؤرخون مذاهب شتي في تعليل السبب الذي دفع علاء الدين خوارزم شاه إلي توزيع قواته علي المدن الخوارزمية المختلفة فيري جيبون أنه ظن أن المغول سيحاولون حصار هذه المدن العديدة ، ومن ثَّم يعودون إلي بلادهم دون أن ينالوا من هذه المدن أو من سكانها منالا، ويري سيكس أن علاء الدين ظن في ذلك الوقت أن المغول سيكتفون من المدن الاسمية بالسلب والنهب ثم يعودون، في حين يري آخرون أنه خشي من أمرائه وقواده أن ينقلبوا عليه.....انظر حافظ حمدي: نفس المرجع، ص ٢٣٧.

(٦٧) النسوي: نفس المصدر، ص٨٩

(٦٨) الصياد: نفس المرجع ص١١٢.

(٦٩) إذ وصل جنكيزخان إلى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية سنة٦١٦هـ/ ١٢١٩م وأتم له إخضاع تلك الدولة وفعل ما فعله بأهلها ومدنها دون أن تلتقي جيوشه بجيوش منظمة أو حرب متكافئة، ثم عاد فعبر نهر جيحون عائدا إلى منغوليا سنة٦٢٠هـ /١٢٢٣م ، بارتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد سعيد، دار الإحسان للطباعة ، ط الأولي سنة ١٩٨٢م، ص٣١.

(٧٠) سيرة السلطان، ص١٠١.

(٧١) في هذا الوقت سارت القوات المغولية وراء السلطان الهارب، وكانوا يستولون على المدن فى طريقهم ويعينون على كل مدينة حاكمًا حتي نجحوا فى الوصول إلى مدينة الري واستولوا عليهم وكان لسقوطها أثر بالغ فى نفوس الخوارزميين فحينها أيقن الأمراء وقواد الجيوش أنه لا فائدة من الدفاع وأخذ كل منهم يفكر فى الطريق الذي ينجيه من

الهلاك وانصرف كل إلى شأنه. وهكذا تفرقت بقايا الجيش الخوارزمي واستولى الفزع على نفوس الجميع ، الغامدي: نفس المرجع، ص٣٠٢.

(٧٢) النسوي: نفس المصدر، ص١٤٦.

(٧٣) فهمي: نفس المرجع، ص٥٧.

(٧٤) النسوي: نفس المصدر، ص ٩٢

(٧٥) النسوي: نفس المصدر، ص ٩٣.

(٧٦) النسوي: نفس المصدر، ص ١٠٧.

(٧٧) الجويني: جهان كشاي: ج٢، ص ٧٣.

(٧٨) جهان كشاي، ج١، ص٤٦٥.

(٧٩) الغامدي: نفس المرجع، ص ٢٨١.

(٨٠) النسوي: نفس المصدر، ص ٩٤، فامبري: تاريخ بخاري، ص ١٧٦– ١٧٨.

(٨١) هو علاء الدين كيقباذ الأول كيخسرو سلطان سلاجقة الروم حكم سنة ٦١٦–٦٣٤هـ/ ١٢١٩– ١٢٣٦م .

(٨٢) أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل): نزهة المقلتين في أخبار الدولتين العلائية والجلالية وما كان فيهما من الوقائع التتارية، تحقيق إبراهيم فرغل ، دار الفلاح ، القاهرة ٢٠٠٨م ، ص ٢٣٠.

(٨٣) الجويني: نفس المصدر، ج٢ ، ص١٨٣.

(٨٤) النسوي: نفس المصدر، ص ٢٨٣.

(٨٥) ابن الأثير: نفس المصدر ، ج١٢، ص ٢٣٩.

(٨٦) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١١٣.

(٨٧) الراوندى: نفس المصدر، ص٣٩٨.

(٨٨) محمد فؤاد كوبريلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، ص٥٧.

(٨٩) رشيد الدين: جامع التواريخ، ص١٣٢.

(٩٠) رشيد الدين: نفس المصدر، ص ص٢٣٦– ٢٣٧.

(٩١) ابن طباطبا: الفخري، ص٢٦.

(٩٢) ابن الأثير: نفس المصدر ، ج١٢، ص١٦٧.

(٩٣) ابن الأثير: نفس المصدر،ج٩، ص ٢٩٥.

(٩٤) الراوندى: نفس المصدر، ص٣٩٨.

(٩٥) رشيد الدين: نفس المصدر، ج١، ص٤٣٨.

(٩٦) مصطفي طه بدر: محنة الإسلام الكبرى" زوال الخلافة العباسية من بغداد علي يد المغول" الهيئة المصرية للكتاب ، ط الثانية ١٩٩٩م ، ص٩٥.

(٩٧) ابن الأثير: نفس المصدر ، ج١٢، ص١٦٥.

(٩٨) جهان كشاي، ج٢، ص٣٥٠.

(٩٩) الجويني: جهان كشاي: ج٢، ص ٧٣.